# الفصل الأول

## لحظة فاصلة فى التاريخ وتفجر الاختيار السياسى

**«إن الحرية كالجن الذى يطلق من قمقمه، لا يرغب بالضرورة أن ينصت لأوامر الشخص الذى نزع السدادة».**

**- (رئيسة وزراء ليتوانيا (كازيميرا برونسكين)، ٣ مايو ١٩٩٠).**

* * *

تحدثت (باربارا وارد)، الاقتصادية المرموقة، عن عصرها باعتباره، نقطة فاصلة فى التاريخ، فقد كتبت تقول: «إن المجال الحيوى لميراثنا، والمجال التكنولوجى لإبداعنا غير متوازنين، فبوابة المستقبل تفتح على أزمة أكثر مفاجأة وأكثر عالمية ولا مفر منها ومذهلة أكثر من أية أزمة صادفها الجنس البشرى، وستتخذ شكلاً حاسمًا فى حياة الأطفال الذين تمت ولادتهم حتى الآن..».

وكل الأحداث التى وقعت منذ أن كتبت باربارا هذه الكلمات عام ١٩٧١ تؤكد على حكمتها النافذة. ولم يكن جليًا فى ذلك الوقت كما هو الآن، أننا نحن البشر نقوم بتجربة جيوفيزيائية هائلة ولا يمكننا حتى تخمين نتائجها.

ولا ينظر معظم أصدقائى فى مجتمع العلماء العالمى إلى أنفسهم كثوريين، فعديد منهم له سجل طويل فى التصويت مع المحافظين، أو تبنى الموقف الحيادى الذى يبتعد عن

obeikandl.com

الخلاف فيما يتعلق بأمور السياسة فى مجتمعاتهم، ومع ذلك فإن استكشاف الفضاء الخارجى، وتخطيط الغلاف الجوى والمحيطات، ومتابعة أدق جزيئات المادة، وفك شفرة المعلومات فى جينات ( مورثات ) الإنسان، ودراسة كيفية عمل المخ، والربط بين أجهزة الكومبيوتر وبين أجهزة الاتصالات اللاسلكية على وجه الخصوص أثبت أن العلم الحديث والتكنولوجيا، قد مهدا الطريق لثورة فى مضمون ومواثيق السياسات العالمية.

* أولاً بالانشطار الذرى ثم بالاندماج النووى، طورنا قدراتنا على القيام بمثل هذه التفجيرات الهائلة التى يصعب علينا فهم الكيفية التى يمكن أن نستخدمها فى الأغراض العسكرية أو كيفية التحكم فيها وتوجيهها لأى غرض آخر ( كما فى حالة الاندماج )، وفى الوقت ذاته فإنه بالأسلحة التى انتجناها بالفعل فإن احتمال القيام بشىء مثل الانتحار الحضارى يظل قائماً.

ومع القدرة على القيام بالتفجيرات الضخمة، نجد تطوير نظم عسكرية وصناعية أكثر تعقيداً، تجعلنا مهيأين لذلك النوع من الكوارث المتساقطة التى تميزت بها أحداث جزيرة ( ثرى مايل أيلاند ) فى أمريكا وبوبال، فى الهند وتشيرنوبل فى الاتحاد السوفيتى السابق، ومكوك الفضاء تشالينجر، وقد ظهرت كل كارثة من هذه الكوارث فى المنازل على التليفزيون فى أنحاء العالم بفضل شبكة الاتصالات المنتشرة عالمياً.

* وبينما كان علم الطبيعة ( الفيزياء ) يضاعف من القدرة على التفجير، كانت علوم الحياة قد بدأت فى اكتشاف ما يحدث داخل الخلية وتتعلم تحريك الجينات داخل وخارج الفصائل والأنواع وتسخير علم الوراثة وعلم الكيمياء لإعادة تركيب الـ ( D.N.A ). وفى مجال التكنولوجيا الحيوية ظهرت آثار ( ثورة الجينات ) واضحة فى الازدياد الكمى فى الإنتاجية النباتية والحيوانية، وفى خلق طرق عملية بالنسبة للمرأة؛ لإنجاب عدد أقل من الأطفال، ووسائل ثبت نجاحها لتصنيع الإنسولين البشرى من البكتريا، وأخرى مبشرة بتصنيع بروتين رخيص ومتوافر، وثالثة محتملة للكشف عن

العيوب الوراثية فى عملية التمثيل الغذائى، وتصحيحها.

* إن الأمر البديهى الواضح أنه فى وقت ما فى السنوات الأخيرة، وكما يقول الكاتب توماس ويلسون الأصغر المتخصص فى البيئة - «لقد بدأت ابتكارات الكائنات البشرية تفوق مبتكرات الطبيعة فى الترتيب العالمى للأشياء.... وقد بدأ الجنس البشرى فى استهلاك بيئته الخاصة» والدليل هو تدميرنا للكثير، دون أن نقصد فعلاً تدمير أى شىء، ويتضمن ذلك تدمير التنوع فى الأصول الوراثية للغابات الاستوائية، وتدمير نقاء البحيرات والجداول والبحار الداخلية بل والمحيطات أيضاً، وتدمير نقاء الهواء الذى نتنفسه، والتوازن فى الغازات المكونة للغلاف الجوى، التى تحافظ على الحياة فى كوكبنا.

إن الأمر الآن يبدو أكثر احتمالاً، عما كان عليه عندما كتبت «باربارا وارد»: «إن الزيادة فى غاز ثانى أكسيد الكربون والغازات الأخرى الناجمة عن عمليات الاحتراق فى الغلاف الجوى قد تؤدى لرفع الحرارة فى العالم، بما يكفى لأن تصبح ولاية كانساس منطقة جافة وترابية، كما حدث من قبل فى أمريكا، وتغمر المياه موانىء العالم عندما ترتفع المياة فى المحيطات بدرجة لا يمكن تداركها.

وأيا كان وقت حدوث ذلك سواء فى أوائل أو فى أواخر القرن الحادى والعشرين - فإنه لا يزال مثار جدل كبير، ويعتمد فى الوقت نفسه على ما نفعله إزاءه.

* إننا لم ندرك حتى فى أوائل السبعينيات - ناهيك عن الأربعينيات - كيف أن التزاوج المتفجر بين الكومبيوترات ووسائل الاتصال يستلزم منا إعادة التفكير فى الأصول الحقيقية لفلسفتنا، وأن نعيد التفكير فى اقتصاد مبنى على تخصيص الندرة فى الموارد، وفى نظم الحكم القائمة على السرية، وفى القوانين القائمة على الملكية الخاصة، وفى الإدارة المبنية على النظام الطبقى.

إن ثورة المعرفة وصلت إلى ذروتها فى الثمانينيات من هذا القرن، ولكنها تمثل الذروة

لقصة طويلة، يبلغ عمرها ٥٣٧ عامًا، منذ تم طبع إنجيل هانز جوتنبرج بحروف متحركة، أو ٤٩٠ عامًا منذ ظهر نيكولاس كوبرنيكوس، وفكرته التى غيرت ما فى الأذهان حول فكرة أن الأرض تدور حول الشمس، و ٣٠٦ عامًا منذ كتاب إسحق نيوتن التاريخى عن الجاذبية الكونية، أو ١٥٩ عامًا منذ تشارلز باباج و« المحرك التحليلى » الذى بشر بالكومبيوتر المعاصر، و١١٧ عامًا منذ اختراع ألكسندر جرهام بل التليفون، و٩٧ عامًا منذ اخترع جوجليلمو ماركونى التلغراف اللاسلكى، و ٣٦ عامًا منذ أول قمر صناعى اتخذ له مدار حول الأرض ( سبوتنك – ١ )، إذ يؤدى كل ذلك إلى حقبة الثمانينيات، عندما انصهرت الكومبيوترات، وأقمار الفضاء، والاتصالات فى أنظمة كونية ذات أثر واسع الانتشار.

وقد استمعت منذ سنوات طويلة لقصة، أصبحت بالنسبة لى رمزًا لكثير مما حدث فى حياتى : قائد عسكرى شاب يستعرض جنود كتيبته أمام عين ناقدة لجنرال كبير، ويعطى أوامره بصوت هامس : الكتيبة سر، ويميل عليه الزائر رفيع المستوى، موجهًا إليه نصيحة : أيها الشاب، عليك أن تصيح وأنت تعطى الأوامر؛ حتى يبدأ الجميع معا وفورًا. وينظر الكابتن بصبر إلى هذا الرصيد الطويل من الخبرة الإدارية العريضة، ويقول له : « لا تقلق ياجنرال، فالأمر سينتشر بينهم ».

إن انتشار المعرفة هو الذى يجعل من الضرورى أن نفكر بطريقة جديدة تمامًا حول النظام العالمى.

لقد كانت مرحلة ممتدة وحافلة بالأحداث، منذ استقرت دعائم النظام العالمى ( الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة – البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى التى تم تأسيسها فى بريتون وودز، وكذلك تحالفات وقت السلم، والمنظمات الإقليمية التى تم إنشاؤها ويكاد المرء يقول إن إنشاءها تم فى الصخر ).

وحتى يصبح العالم منظمًا، فقد شهد خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة تحولات فى

أوضاعه، وبمعدل كان من الصعب تخيله فى عام ١٩٤٥ .

ففى ذلك الوقت، وفى سياق التحول الذى شهدته المأساة البشرية فى الحرب العالمية الثانية، والتحذير الذى أطلقته قوة الأنشطة الذرية، فكر قادة الحلفاء وأنشأوا مؤسسات لم تكن مسبوقة فى تاريخ العالم، فوضعوا ميثاق الأمم المتحدة، وأقاموا شبكة من المنظمات العالمية، والتى يضطلع بعضها بمشاكل خاصة على المستوى العالمى ( التنبؤ الجوى – الطيران المدنى – الاتصالات اللاسلكية والإلكترونية – مراقبة البيئة – البحث العلمى المشترك ) .

وقامت الولايات المتحدة وكندا وأوروبا الغربية بتسخير جهود هائلة للإصلاح، كانت ذراوتها فى مشروع مارشال، وسرعان ما قاموا بإدخال ثلثى ألمانيا – فى تلك « البريسترويكا » الخاصة بذلك الوقت . وقبل أن يمر وقت طويل، كانوا قد ارتبطوا – فيما بينهم – فى تحالفات سلمية من نوع جديد : حلف شمال الأطلنطى، وتحالف نصف الكرة الغربى الذى عرف بميثاق ريو، والتحالف الذى ضم نيوزيلندا وأستراليا مع الولايات المتحدة الأمريكية (ANZUS )، بالإضافة إلى التحالف الثنائى بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ( بعد حل جيشها ) . وساعدوا بالتعاون فى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة على وضع قوات حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة، كانت ضخمة ( فى كوريا )، ومتوسطة ( فى الكونغو ) وصغيرة ( فى سيناء وقبرص وكشمير ) .

وبشرت كل هذه الخبرة بالأعمال التعاونية التى حدثت فى التسعينيات، بدءاً بعملية عاصفة الصحراء فى الشرق الأوسط، وتفويض الأمم المتحدة فى التدخل فى كل من كمبوديا ويوجوسلافيا .

وبقليل أو كثير من المانعة، قاموا بتحرير ١٣٠ مستعمرة، وبتقنين حقوق الإنسان الدولية . كما بدأوا فى تنفيذ تلك الفكرة التاريخية الغريبة، وهى أن على الدول الغنية الالتزام بتوفير المساعدة المادية والفنية لأبناء عمهم، الفقراء فى العالم .

لقد شهد قادة التحالف الرئيسى – الذى استمر من ٤١–١٩٤٥ وقاسى كثيراً – مصيرهم فى الانفصال السريع عن شركائهم فى الحرب، والتنافس معهم على مستوى العالم حول النفوذ والأيديولوجية، فبالإضافة إلى الاشتراكية بتأكيدها على التوزيع العادل للموارد فى العالم ووعدها بحياة أفضل للجميع، فقد أضاف زعماء الاتحاد السوفيتى الإدعاء بأن ملكية الدولة، والتخطيط المركزى، والمزارع الجماعية، هى السبيل إلى بناء اقتصاد قوى وعادل، وكذلك الفكرة القائلة بأن الزعماء السياسيين عليهم أن يفكروا فى أنفسهم، على أنهم يعملون من أجل من يقومون بالعمل فى العالم كله.

وقد استخدموا العلم المتقدم والتكنولوجيا؛ لإثبات وصولهم لكل مكان فى العالم (تذكروا التأثير واسع النطاق الذى سببه سبوتنك فى عام ١٩٥٧)، كما أعادوا بناء قوة مسلحة، هيمنت بسهولة على أوروبا الشرقية، ومثلت التحدى الحقيقى للقوة العظمى النووية الأخرى. وقد أقنع هذا البريق السياسى والعسكرى للاقتصاد الماركسى، الكثيرين بالاعتقاد أن الاتحاد السوفيتى كان يساعد التاريخ على الاتجاه نحو المصير الماركسى.

وقد شكك الكثيرون فى الغرب، كما قال ألكس دى توكفيل منذ ١٥٠ عامًا فى أن الديمقراطية «تستطيع تنظيم وترتيب تفاصيل مسئوليتها المهمة، وأن تثابر محتفظة بهيكل ثابت، وأن تقوم بأدائها، على الرغم من العقبات الخطيرة». ولكن الذى اتضح أن الغرب قد تسلل، من خلال جاذبية وحيوية الديمقراطية واقتصاد السوق الموجه إلى الدول الشرقية الشيوعية ذات الاقتصاد المخطط، والتى كانت تؤجل إشباعاتها؛ لأن زعماءها أخبروهم بأن ذلك ضرورى من أجل الاشتراكية وأفكارها. وربما تنبأ «دى توكفيل» بهذه النتيجة، من خلال نظرته الثاقبة القديمة، والتى لم ترد فى أفضل أعماله (الديمقراطية فى أمريكا)، وإنما وردت فى خطاب له ألقاه بعد ذلك قال فيه: «الديمقراطية والاشتراكية لا يشتركان فى أى شىء إلا كلمة واحدة هى المساواة، لكن لاحظوا الفرق: ففى حين أن الديمقراطية تبحث عن المساواة فى الحرية، فإن الاشتراكية

تبحث عنها في التقييد والعبودية».

وبعد أن استخدم الجيش الأحمر العنف مع الحكومة التشيكية برئاسة ألكسندر دوبتشك في أغسطس سنة ١٩٦٨، قام رسام كاريكاتير باريسي (فرنسي) - وفي رسم واحد - بتوصيف المعضلة التي واجهها الكرملين بعد ذلك! في عام ١٩٨٩، فقد تضمن الرسم مجموعة من الطلبة والعمال واقفين، في ركن بأحد الشوارع، وتجرى بينهم مناقشة ساخنة في السياسة، وفي الخلفية اثنان من القوميساريين السوفييت (منذ ولى الحزب الشيوعي)، يفركان أيديهما وأحدهما يقول للآخر: «المشكلة في هذه الجمهوريات الديمقراطية الشعبية تبدو في أنها تنتج شعوباً جمهورية ديمقراطية!».

وبعد ذلك بعام واحد عدت للوطن من باريس، ومن بروكسل بعد ٤ سنوات قضيتها كسفير للولايات المتحدة لدى حلف الناتو، وفي تعليق له عند رحيلي، تنبأ (مانليو بروزيو)، المفكر الإيطالي الذي كان سكرتيراً عاماً للناتو في الستينيات بأن السلام سيأتي بالخاصية (الأسموزية) أي بالامتصاص التدريجي للأفكار من خلال الأغشية المسامية للأيديولوجية والقومية، لقد كان ذلك توقعاً جيداً فالمعلومات عن المؤسسات الحرة والمشروعات التي تجلب الثروة، كانت تتسرب من الغرب إلى الشرق في أوروبا وكانت لها نتائج تحويلية.

وفي عام ١٩٨٩ وفي مفاجأة كاملة - لم يتوقع حدوثها أي من طرفي الحرب الباردة - انفجر الخيار السياسي في جميع الأنحاء؛ إذ تم إشعال «عام الديمقراطية» كما يحدث دائماً في الثورات، ليس بواسطة البؤساء، أفقر الفقراء، ولكن بواسطة الملايين من المتعلمين (وباستخدام التصنيف الصيني: الطلبة، العمال، الحرفيين، المفكرين)؛ حيث وصلوا إلى قناعة أن لهم الحق في الاختيار، وأن احتياجاتهم لم تكن تستحق أن تكون محدودة الأفق بهذا الشكل، ضيقة النطاق، وينقصها المواد التموينية ووسائل الراحة والكرامة والعدل إلى هذه الدرجة.

وتعد الصين نموذجًا دراسيًّا يحتذى، ليس لأن المصلحين الصينيين لم يرقهم ما بدأوه فاستخدموا الدبابات لقمعه، وإنما لأن هذا النموذج يوضح بجلاء كيف أن الانفتاح الاقتصادى يقود إلى مطالب تتعلق بالإصلاح السياسى. فى أواخر الثمانينيات اكتشف زعماء الصين السياسيون والملايين من المستثمرين بالفطرة القيمة المحفزة للأسواق مرة أخرى. وكان ما يقوله المصلحون الصينيون أكثر جاذبية، مما كانوا يفعلونه. وكان الميثاق الجديد عبارة عن تكرار مبدع لكارل ماركس وتوماس جيفرسون ( مع إضافة سمات صينية ).

وقد أطلق على هذا الابتكار الجديد « الاقتصاد السلعى الاشتراكى » أو « اقتصاد المقايضة » وقالوا إنه وجد قبل الرأسمالية بآلاف السنين، ومن البازارات العربية القديمة وأسواق الخشخاش الصيفية إلى الأسواق الحديثة، كان السوق دائمًا يجلب البائعين والمشترين ويجمعهم معًا لتجرى المساومات على الغوانى والمخدرات، وعلى زيت التانج وشعر الخنزير، وعلى الأرز والخضراوات، وعلى أجهزة الكومبيوتر والأقراص المدمجة لذلك لم يتحدث زعماء الصين عن إعادة اكتشاف آليات السوق باعتبارها واردة من الغرب، وإنما كأشياء يتم استرجاعها من الماضى.

بل إن الذى أعادوا اكتشافه عن الأسواق هو أنهم أوجدوا العمل الشاق، والإبداع والنشاط. وفى تلك الأيام السيئة الماضية كان يتم تحديد الطلب بالتخطيط المركزى ووفقًا لنظام الحصص الثابتة، ومؤخرًا أصبحت الحصص الرسمية منخفضة؛ مما أدى لأن تصبح الأعمال التجارية بصفة عامة موضوعًا لا يتخذ فيه القرار بواسطة المتخصصين فى الاقتصاد، وإنما بواسطة البائعين والمشترين، سواء أدى ذلك إلى أسواق سميت بالسوق السوداء أو بالسوق الحر؛ إذ كانت المسألة أذواق؛ بل إن ( دنج شياوبنج )، قال إنه اندهش للتطور السريع فى الصناعات الريفية الصغيرة فى أنحاء الصين كله، بمجرد أن أعطيت لفرصة للرأسمالية المحلية.

ولكن زعماء الصين اكتشفوا صعوبة الطريق؛ إذ أدركوا أنهم لن يستطيعوا السماح لحرية السوق بأن تؤدى إلى حرية فى الأفكار وفى التعبير، مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بإحكام سيطرة الحزب الشيوعى على القوة.

إن الطلبة الذين تظاهروا فى ميدان «تيانانمن» فى صيف ١٩٨٩ كانوا يستلهمون الكثير من الزعيم ماو، وكذلك من «توماس باين»، وفى الكتاب الأحمر الصغير الذى يسقط الآن فى دائرة اللاكترات، نجد أفكار الزعيم ماو التى تشير إلى أن الثورة القديمة حثت قادة العهد الشيوعى على أن يتذكروا دائمًا أن الجماهير هى التى تصنع السياسة، وأن دورهم هو أن يتغلغلوا داخل الشعب، ويستكشفوا إلى أين تتجه الجماهير، ثم يصفوا هذا الإحساس باتجاههم ويقوموا بتشريعه وتنظيمه، وبالتالى تنفيذه، كما يضيف أيضًا أن عليهم أن يعودوا ثانية ويتلاحموا مع الجماهير للتأكد من أنهم يسايرون اتجاهاتهم المتغيرة، وعندها يمكنهم إعادة التوصيف والتشريع والتنظيم، وهذه الدائرة المتواصلة من التواصل بينكم وبين الجماهير، هى التى أصبحت ما يعرف «نظرية للمعرفة».

وسواء درس الطلبة الصينيون ذلك قبل أن يحذف من مقررات القراءة أم لا، فإنهم لعبوا الدور الذى تقوم فيه الجماهير بصناعة السياسة. لقد بدأ القادة والكوادر ثورة مصغرة لبث الحياة فى اقتصاد راكد، ولكن الطلبة والمواطنين الذين شغلتهم هذه التضحية اعتبروا أن ذلك لا يكفى، وأن هذه المبادرة وتلك النتائج لا تعدوكونها نتاجًا لـ«ترك عديد من الأزهار تتفتح» (إنها استعارة أخرى لماو، صادرتها النظم الموالية له)، ونتاجًا كذلك لتشجيع الناس على وضع أقدارهم فى أيديهم.

وفى النهاية قرر حكام الثمانينيات فى بكين أنهم استنفذوا الحد المقبول بشكل كافٍ، وجعلوا الدبابات تؤدى وظيفة العصا الغليظة. وقد خمن عالم النفس ريتشارد فارسون، فى ذلك الوقت أن القادة الصينيين قد أصابهم الخرس والصمم، بما يشبه الصعق

بالتيار؛ إذ انفتحت الصين على العالم الخارجى، وتضاعفت الثروة القومية فى عقد واحد، وانخرطت الصين فى نظم السوق أو ما أسماه منتقدوهم خطأ بالرأسمالية. لكن ماذا جنوا من كل ذلك؟ طلبة مستاءون ومعترضون وغاضبون، ثم تصرفوا كالآباء فى مثل هذه المواقف؛ إذ بدلاً من تقييم نجاحهم وفقًا لنوع الرفض الذى تسببوا فيه، فإنهم بأنفسهم قد غضبوا ولجأوا للكبت الجماهيرى، الذى هيأتهم تمامًا له خلفيتهم السياسية.

وفى الصين – كما فى الغرب، تعتبر مشكلة الميل إلى التناقضين قد أصبحت واضحة بصورة مقلقة: فهؤلاء أصحاب مسئولية القيادة مرئيون دائمًا أكثر مما يجب، فيما يتعلق بمسئولية التغيير؛ حتى يصبح الأمر أكثر خطورة أن يظلوا ساكنين، بدلاً من أن يتحركوا، وليس جديداً ما قاله فولتر: (أنا قائد، لذلك لابد أن استمر)، والشعار الذى تردد بلاتوقف فى الميدان هو «الديمقراطية»، غير أن مضمونه كان غير واضح تمامًا، فقد أخبر طالب صحفيًا، بأنه لم يكن يعرف ما هى الديمقراطية، ولكنه يعلم أن الصين تحتاج للمزيد منها، ولم يكن للينين ولا لكونفوشيوس دور كبير فى أحداث ميدان تيانا نمن والأحداث التاريخية التى تمت فى مايو ١٩٨٩. ورغم أن ١٩٨٩ كان الذكرى المائتين على الثورة الفرنسية، وكذلك ذكرى تولى جورج واشنطن فى أمريكا، فإن الطلقات التذكارية التى سمعت فى أنحاء العالم ،من بكين لم تكن فى جوهرها أمريكية ولا فرنسية أيضًا، بل كانت اللغة العالمية لحقوق الإنسان، كانت اللغة المتعددة الثقافة التى تعبر عن طموح الناس فى أن تصبح لهم الكلمة فى مصيرهم الخاص.

لقد كانت كلتا الاستراتيجيتين الصينية والسوفيتية (الإصلاح من الداخل) عبارة عن ثورات نبعت من القمة، وأراد زعماؤهما أن تدار من القمة أيضًا. والفارق بينهما أن دنج شياوبنج اعتقد أن باستطاعته القيام بالإصلاح الاقتصادى، بل والانفتاح المطلوب لمجاراة ما يحدده السوق، والاحتفاظ فى الوقت نفسه باحتكار القوة السياسية لحزب واحد، تسيطر عليه مجموعة قليلة متماسكة من أصدقاء العمر.

أما ميخائيل جورباتشوف فكان واضحًا فى خطابه السياسى من البداية أنه يرى ضرورة أن تسير السياسة جنبًا إلى جنب مع الاقتصاد، وفى مايو ١٩٨٩ عندما قام بزيارة الصين وجد أنه معشوق الطلبة المتظاهرين من أجل الديمقراطية. ووقتها أوضح جورباتشوف المسألة للنخبة التى اجتمع بها أن التجربة السوفيتية أوضحت: «أن الإصلاح الاقتصادى لن ينجح، ما لم يدعم بتحول جذرى فى النظام السياسى».

ولم يسمح لأى صينى من المليون المجتمعين داخل وحول ميدان «تيانانمن» بأن يستمعوا للخطاب الذى ألقاه جورباتشوف، ولكن سرعان ما علموا بما فيه من وسائل الإعلام الإلكترونية عبر الأثير، وأدت سرعة بديهة قادة المتظاهرين إلى التوصل لخلاصة، مؤداها أن الإصلاح من أعلى لن يحقق أبدًا ما يتماشى مع التوقعات والأحلام التى يخلقها.

إن تسرب المعلومات كان بمثابة طريق ذى اتجاهين، إذ لم يمض وقت طويل، إلا وتسللت حمى المظاهرات فى الشوارع من منتصف الطريق من معظم أنحاء العالم إلى وسط وشرق أوروبا، ورغم أن التغييرات السياسية تحركت بسرعة فى أماكن وأوقات أخرى، إلا أنه من الصعب الحديث عن لحظة تاريخية، فى ظل المعدل المتباين الذى تجرى به هذه التغيرات.

وقد علق أحد المراقبين قائلاً إن إنهاء حكم الحزب الشيوعى فى بولندا استغرق عشر سنوات ،وفى المجر عشرة شهور وفى ألمانيا الشرقية عشرة أسابيع، وفى تشيكوسلوفاكيا عشرة أيام، وفى رومانيا ليس أكثر من عشر ساعات. إن التاريخ الفعلى لا يحدث هكذا فى صورة حزم زمنية مستقلة، ولكن تلك الملاحظة تساعدنا على تذكر تلك السلسلة من المفاجآت السياسية، التى ملأت شاشات التليفزيون فى ١٩٨٩، ثم فى خريف ١٩٩١ عندما انحل الاتحاد السوفيتى نفسه، وأخذت جمهورياته تحاول لملمة أجزائه المتبعثرة.

وبالتأمل فيما حدث يتضح بجلاء أن ما تم من انفجار سياسى نحو التغيير عبر اللغة وحدودها، والحواجز القومية والعقبات السياسية إنماحدث بواسطة تكنولوجيا المعلومات الحديثة، فكل من التليفونات وأجهزة الفاكس والأقمار الصناعية والراديو والتليفزيون والكومبيوترات المستخدمة فى الاتصالات، كلها أكدت بشدة أن نظم الاتصالات القديمة المعهودة أصبحت غير ذات قيمة.

وكما هو الحال فى بكين وكذلك فى الاتحاد السوفيتى، لم يكن هناك فقط الفقراء المدقعون، ولكن أيضًا المحيطين من المتعلمين، وهم الذين جعلوا الموكب يتحرك. فبمجرد أن أوضح الكرملين فى عهد جورباتشوف أن الباب فتح، وأن الفقاعات (البالونات) لن تتوقف عن الارتفاع، أصبحت كلمة «شيوعى» فجأة سبة بين العامة فى العلن، وليس كما كانت دائمًا فى الخفاء.

واكتشفت شعوب وسط وشرق أوروبا – واحداً تلو الآخر – لدهشتهم الشديدة – أنهم كانوا يطرقون على باب غير مغلق، وبدأ يتدفقون خلاله، وقبل مرور وقت طويل وجد البعض أنفسهم على الجانب الغربى من بوابة بريندبرج فى سور برلين.

وكان هذا التغيير المفاجىء لمجريات الأحداث بمثابة انتصار لنظرية (الاحتواء) الخاصة «بجورج كينان»، الدبلوماسى والمؤرخ الذى طرح فى عام ١٩٤٧ فكرة «احتواء حذر ومتماسك وصبور وطويل المدى للاتجاهات التوسعية الروسية». ويقول الآن إن الدرع العسكرى للناتو لم يكن العامل الأساسى فى التغيير (بقدر ما ارتبط بتفوق الديمقراطيات الصناعية فى أدائها على الاتحاد السوفيت): «أدرك كثير من الأذكياء فى الاتحاد السوفيت أن النظام كله يهوى، ولم يعد قادراً على المنافسة وأن الدول الرأسمالية سبقته إلى حد بعيد» وبناء على ذلك حدث التغيير وحقق نجاحًا، وبدأ التخلى عن الاقتصاد الماركسى، وانتقل الأمر بسرعة إلى أوروبا بالشرقية، وتدفق المهاجرون من ألمانيا الشرقية وتهدم سور برلين، فكان التفكك المفاجىء غير الدموى فى الاتحاد السوفيت.

سئل «ڤاكلاف هافيل»، الكاتب المسرحي - والذى أصبح رئيسًا لتشيكوسلوفاكيا، فى فبراير ١٩٩٠ عبر حوار تليفزيونى - عن شعوره ككاتب دراما عن شهر الأحداث فى ١٩٨٩، فأجاب بلباقة غير مصطنعة بأنها: «دراما مثيرة ومأساة، ولاتصدق بدرجة يصعب معها أن يؤلفها أحد».

الدرس الرئيسى من تلك الفترة فى حياتنا واضح بما يكفى، وهو أن الناس - وليس قادتهم - هم الذين كانوا يقودون المسيرة، وحان الوقت الآن للبدء فى استيعاب هذا الدرس، وها هى أمثلة بسيطة تساعدنا على سرعة الاستيعاب، ونلاحظ فيها التعارض والمفارقة بين الإصلاح من أعلى لأسفل من ناحية، وتفاقم الرغبة فى حرية الاختيار السياسى من القاعدة من ناحية أخرى: ففى الصين تجمدت المجموعة الصغيرة المنادية بالإصلاح من أعلى، وأصبح السؤال ليس ما إذا كانوا سينجحون أم لا، وإنما متى سيأتى من يخلفهم؟

- فى أوروبا الشرقية خرجت بعض التصريحات المتسرعة عن الإصلاح من أعلى على لسان القادة الشيوعيين، تحت وطأة الحشود الثائرة، وأظهرت فورات الخيار السياسى أن معظم القادة القدماء سينتهون إلا قلة منهم، خاصة فى رومانيا، وبلغاريا، وليتوانيا، وأوكرانيا، إذ أنقذوا الموجة الأولى من الإصلاح بالارتداء السريع عن مواقفهم؛ ليصبحوا ديمقراطيين اشتراكيين.

- وفى الاتحاد السوفيتى حاول جورباتشوف أن يحافظ على استمرار جوهر الإصلاح دون كبح جماحه، فدافع عن الانفتاح، وأصبح هذا الدفاع إصراراً على حرية الاختيار وحق تقرير المصير. فى البداية كان جورباتشوف كمن يسمى فى مصطلحات كرة السلة بأستاذ الهجمة المرتدة السريعة، ففى سنواته الأولى كزعيم للاتحاد السوفيتى، أمكنه تسجيل نقاط عديدة من هجمات مرتدة فى سلة الخصم، إذ سابق جورباتشوف أكثر من مرة - وبشكل متكرر - زعماء العالم الآخرين خاصة الرئيسين ريجان وبوش، فى

اقتراح خفض التسليح إلى حد كبير، وحماية البيئة العالمية، ودعم الأمم المتحدة. ومن ثم أخذ زمام المبادرة وترك نظراءه يتساءلون فى داخلهم، وفيما بينهم: هل غدا الشخص واقعيًا فعلاً؟، والواقع أنه كان كذلك.

وفيما بعد، ومثل كثير ممن يفشلون فى فهم ما يعلمه كل مدرب كرة سلة للاعبين من أن أهم ما فى الهجمة المرتدة السريعة، هو العودة بسرعة إلى سلة الفريق، قبل أن يصل إليها أى شخص آخر؛ إذ كانت ارتداءاته بطيئة، فقد ظل يعتقد أن الاشتراكية قابلة للإصلاح، بعد أن قام أفضل مستشاريه -ومعظم من كان برأسهم- بإلقائها فى سلة مهملات التاريخ، كما تردد فى إحداث الهزة التى كان يحتاجها الاقتصاد السوفيتى بشدة، وعين المتشددين الذين كان انقلابهم الفاشل ضده، هو البداية الحقيقية لنهاية الاتحاد السوفيت ولمهمة جورباتشوف.

والعبرة من الحالات الثلاث تتركز فى أن الإصلاح من أعلى سيظل دائمًا أقل من المطلوب ومتأخر جداً، فالجماهير ستفلت بسهولة تامة من تحت سيطرة القائمين بالإصلاح.

ومن الصعب أن نفكر فى وقت ما من تاريخ العالم، لم يكن فيه لقادة الدول الكبرى علاقة بالأحداث المهمة؟ وقد تابع رؤساء الدول ورؤساء الوزارات فى القوى العسكرى والاقتصادية فى العالم بدهشة، لم يستطيعوا إخفاءها أنباء تلك الليلة، عندما برزت قوة الجماهير على مسرح أحداث العالم فى صيف ١٩٨٩، فلم تعد المقاييس العادية للقوة كالأسلحة والجيوش والناتج القومى الإجمالى هى الأساسية؛ إذ كانت قوة الأفكار -ولا تزال- تلعب دوراً أكثر من أى شيء آخر.

وكانت الحشود المتعجلة تتحرك، ليس بدافع من رؤيتها البعيدة للمدينة الفاضلة (اليوتوبيا)، وإنما بانتقال المعلومات عن الدول المجاورة التى كانت تحصل على خدمات أكثر **وسلع** أكثر وعدالة أكثر فى توزيع هذه السلع والخدمات، وضمانات راسخة أكثر

لحقوق الإنسان، مما كان يقدمه رؤساءهم لهم. وكان لهذا التأثير المستفز الدور الأكبر فى رفع درجة الإحباط السياسى إلى حد الغليان.

والمبدأ واحد ومعروف، فكما كان الزراع يراقبون ويتعلمون وينقلون الاختراعات الزراعية عن جيرانهم، فإن رجال الأعمال والبنوك كانوا يراقبون بفزع، بينما يأخذ منافسهم عملاءهم من خلال الإبداع والمزيد من الجهد، ثم يردون هم عليهم بتقليدهم.

إن ما قضى على زعماء الصين كان المعلومات المتدفقة بلا توقف عما كان يحدث فى اليابان، وكوريا الجنوبية، وتايوان، وهونج كونج وسنغافورة. فالأمر الذى فاجأ الزعماء الشيوعيين فى أوروبا الشرقية هو ما كان يجرى فى أوروبا بالغربية وأمريكا الشمالية. فقد لاحظوا أن الشعوب فى الغرب تختار كلاً من قادتها وأنماط حياتها، ولذلك تكون أفضل حالاً فى الغذاء والملبس وبرغم مشاكلها تكون سعيدة، وتسرب أنباء هذا التناقض بسهولة إلى الشرق، من خلال القصص التى يحكيها المسافرون، ومن خلال الكلمة المكتوبة، والتليفون والفاكسيميلى والراديو والتليفزيون على وجه الخصوص.

إن أكثر المصادر حاليًا لنقل الكلمة هو ما أسماه عالم المستقبليات چون پلات «مسرحة التليفزيون للاحتياجات والمشاكل والمخاوف الإنسانية». فعندما تصبح الأمور مرئية بوضوح أمام الملايين وتكون صارخة.. «حرب، وظلم، **ومدت** الطيور التجربة.. عندها يصبح التليفزيون أداة للضمير، ووسيلة للتعاطف عبر الحدود الجغرافية والاجتماعية».

كان التليفزيون بالنسبة لشعوب أوروبا الشرقية فى الثمانينيات بمثابة نافذة تنظر بها بحسد وغيرة إلى جيرانها، وآلة أفرزت التبرم من الفساد، ومن قادتها الذين لم يستطيعوا تحرير سياساتهم بالقدر الكافى.

وظل جورباتشوف يقول بطريقة أو بأخرى، إن علينا تعبئة الإحساس الشعبى للمشاركة السياسية **والتحسين** الاقتصادى، وذلك بتخليصهم من القلق والسلبية نتيجة

لحكمهم بنظام المرشدين السريين، والاقتصاد المخطط مركزيًا.

ولأن أحدًا لا يعرف بالتحديد كيف يمكن التحكم فى هذه العملية من القمة، فقد بدأت الزعامة تتسرب من الرؤساء الذين مكثوا طويلاً فى المنصب، إلى القادة على المستوى المحلى الصغير وجماعات المصالح، (مثل عمال المناجم وعلماء الجامعات وتجار التجزئة والبيروقراطين وأشباههم) وأصبح لهم نصيب أكبر فى إصدار القرارات، والتخفيف من المصاعب الاقتصادية، التى يعانى منها جيرانهم.

ويحاول المصلحون من أعلى الهرم وحتى قاعدته الحفاظ على خط يفصل بين ما هو آمن، وما هو ليس كذلك فيما تعلموه، ومنذ قرن مضى ميزت الصين الإمبريالية بين (أن تتعلم الصين من أجل الأمور الأساسية) و(بين طرق التعليم فى الغرب من أجل الأمور العملية)، لكن كيف يمكن فى هذه الأيام أن يميز القائد بين العملى وبين الأساسى؛ خاصة عندما يصبح التعليم العملى شيئًا أساسيًا جدًا؟ «إن جانباً كبيراً من الثقافة المبنية على أساس علمى تأتى جاهزة مع هذه الواردات العملية. وفى داخل التكنولوجيا الحديثة نجد مغروسًا فيها الأفكار الغربية عن القيود المفروضة على الحكومات، وعن حرية الاكتشاف والتجربة والتحديد وعن حقوق العمال وعن المديرين الذين يقودون العمل دون مظاهر الرئاسة»، إن المعضلة الأصعب التى يواجهها المصلحون من أعلى، هى كيفية تعليم شعوبهم خصوصًا الشباب، دون إغرائهم بالانشقاق على مجتمعاتهم.

وفيما يتعلق بالسياسة فإن الذين يفكرون **تشوبهم** سمعة رديئة بأنهم ذوو طبع سيىء ومبدعين، ولا يهم كثيراً ما تمرنوا طويلاً على أن يفكروا فيه وجزء مما تعلموه فى كل مجال من مجالات المعرفة هو بهجة الاختيار الإبداعى. فإذا أصبحت حرية الاختيار أساسية فى تعاليمهم التخصصية، فلن تكون مسألة بعيدة المنال أن تقنعهم أن الحرية فى الاختيار السياسى ليست فقط شيئًا جذابًا ولكن يمكن الحصول عليه أيضًا.

وهذا هو سبب أن انتشار التعليم فى انحاء العالم يهدم أهرامات السلطة والثروة

والتفرقة التى تبدو كالجرانيت، ولكن يتضح أنها أحجار رملية مليئة بالثقوب وتنهار تحت أى ضغط.

إن (الطلبة) لا يستطيعون حتى الآن معرفة كيفية إدارة الاقتصاد أو حكم المجتمع، لكنهم يلاحظون أن الكبار أيضًا لا يعرفوه جيداً فنون الإدارة والحكم. والواضح تمامًا أمامهم أن عليهم فتح ما كان مغلقًا، وكشف ما كان مستوراً، وإحلال الخيار الإنسانى محل الغدر اللاإنسانى، وسحب كل ما يتصل (بالمحظورات) من الأطراف إلى المركز، حيث يمكن أن تجرى الاختبارات.

إن تصميم المتعلمين - ويقدرون بالملايين - على أن يكون لهم صوت فى تحديد مصيرهم يبدو دائمًا أنه يلقى مقاومة على المدى القصير بواسطة هؤلاء الذين يملكون هذا الحق فعلاً. ولكن على المدى الطويل ومع انتشار المعلومات يصبح من الصعوبة مقاومته، فقد حدث ذلك بالأمس فى ساحة وبناء السفن فى ميناء جدانسك فى بولندا، وفى ميدان فينزيلاز، وفى أكاديمية العلوم السوفيتية، واليوم يحدث ذلك فى الجمهوريات السوفيتية وفى جنوب أفريقيا وفى سياسات أمريكا اللاتينية، مثلما يحدث فى نيكاراجوا وشيلى. وغداً سوف يحدث فى نظم سلطوية ودينية وملكية كدول الخليج، وإيران، والعراق، وكوبا، وكوريا الشمالية وأندونيسيا، والصين.. وهذا إذ أردنا فقط ذكر الدول المرشحة بوضوح حاليًا لحدوث تغيير سياسى بها.

إن الشعوب التى تربت تحت مظلة المؤسسات الديموقراطية، تعتقد أن لديها نوعًا من القدرة على رسم خريطة لتطور الديمقراطية، ونعنى هنا ديموقراطيتهم. ففى الولايات المتحدة، استغرق الأمر ثلاثة عشر عامًا (١٩٧٦-١٩٨٩) لنحتفل بالعيد المائتين للتجربة التى لم تحقق التوازن بين السلطات بحيث لا يحتكر أحد السلطة وحده، كما ينص على ذلك دستور الولايات المتحدة. ومع ذلك فإننا نشعر الآن أن هناك تغيراً أساسيًا، فحركة الديمقراطية أصبحت اليوم واسعة النطاق وأعمق وأشمل عما حققته مجموعة صغيرة من

الرجال الأذكياء الذين يضعون باروكة الشعر فوق رؤوسهم، والذين كانوا من الطبقة العليا في أيامهم، وبعضهم كان من حائزي العبيد حتى ذلك الوقت عندما أصدروا بيانهم الدستوري والحلول الوسطى العظمى التي توصلوا إليها. وكانوا رجالاً قرأ لهم العالم باهتمام، ومن المفترض أنهم كانوا يتحدثون بوضوح مؤثر وبلباقة باسم الناس في كل مكان.

والآن نجد الرجال والنساء من كل الأشكال والألوان والألسنة يقفون معًا من أجل أنفسهم بمئات الآلاف في ميدان عام واحداً بعد الآخر، وبالملايين عندما تتاح لهم الفرصة للتصويت على مستقبلهم.. وقادتهم (القدامى) وراءهم بمسافة، وهم يسارعون لاهثين بادعاء أن المواكب الحديثة لا تزال بحاجة لقارعي الطبول القدامى، في حين أن القادة الجدد يظهرون على المسرح نساءً ورجالاً بإطراد، وغالبًا من المتعلمين.. صحفيون، وكتاب، أساتذة جامعة– قادة عماليون، ومستثمرون، وموظفون مدنيون، بل وبعض السياسيين المحترفين – ويتم الدفع بهم إلى مواقع السلطة، عن طريق الهدير البركاني للحشود الجديدة من الجماهير، التي أصبحت تتكلم بوضوح أخيراً.